تاريخ الدول الاسلامية

الفخري

في الآداب السلطانية والدول الإسلامية

تأليف

محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا

دار صادر
بيروت

الحمدُ لله مسبّب الأسباب ، ومُفتّح الأبواب ، مُقدّر الأمور ، ومُدبّر الدهور ، واجب الوجود ، وخالق الأخلاق والجود ، مفيض العقل وواهب الكلّ ، أُقرّ أنّه المالك الوجود مملوكاً لعظمته ، وأشهد أنّه الفاطر وأنّ الغيب غير مستور لحكمته ، وأعوذُ بجلال عزّهِ من ذلّ الحِجابِ ، وبفضل جُوده من نقاش الحساب ، وبخافي علمه ممّا في الكتاب مِنَ العَذابِ ، وأصلّي على النّفوس العُلْويّة المُطهَّرةِ من الأدناسِ ، وعلى الأجسام الأرضيّةِ المنزّهة عن الأرجاسِ ، وأخصّ من بينهم بأفضل الصّلوات الزاكيات ، وأكمل التحيّات النّاميات ، مَنْ نادى والألسنُ حِدادٌ ، وأرشَدَ والأكبادُ غِلاظٌ والقلوبُ جلادٌ ، مُحمّداً النبيّ الأمّيّ ذا التأييدات الإلهيّة ، والتأكيدات الجلاليّة ، وآله الطيّبين وأصحابه الصّالحين ، الذين كانوا صَدّقوه وقد أُرسِلَ ، ونصرُوه وقد خُذِلَ ، ما سَمَحَ جَوادٌ ، وورى زِنادٌ .

فضيلة العلم والكتب

وبَعدُ فإن أفضلَ ما نَظَرَ فيه خواصّ الملوكِ ، وسَلَكوا إليه أفضل السلوك ، بُعدُ نظرهم في أمرِ الأمّة ، وقيامهم فيما استُودعوه بالحجّة ، هو النّظرُ في العُلوم ، والإقبال على الكُتُب التي صَدَرَت عن شرائفِ الفهوم ، فأمّا فضيلة العلم فظاهرةٌ ظهورَ الشمس ، عَريّةٌ من الشكّ واللّبس . فممّا جاءَ من ذلك

في التنزيل قوله تعالى : « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمون » وممّا جاء في الحديث ، صلوات الله وسلامه على من نُسب إليه : « إنّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجْنِحَتَها لِطالِبِ العِلْمِ » .

وأما فضيلةُ الكتب فقد قالوا إن الكتابَ هو الجليسُ الذي لا ينافق ولا يَمَلّ ولا يُعاتبُكَ إذا جَفَوْتَه ولا يُفشي سرّك . وقال المُهَلَّبُ لبنيه: يا بَنِيّ إذا وقفتم في الأسواق فلا تقفوا إلا على مَن يَبيعُ السلاحَ أو يبيعُ الكتبَ . وكان الفَتْحُ بنُ خاقان إذا كان جالساً في حضرةِ المتوكّلِ وأرادَ أن يقومَ إلى المُتَوَضّإ أخْرج من ساقِ مَوْزَتِهِ كتاباً لطيفاً فلا يزال يُطالعُه في مَمَرّه وعوْده فإذا وَصَل إلى الحضرة الخليفية أعاده إلى ساق موزته .

أرسل بعضُ الخلفاءِ في طَلَبِ بعض العلماءِ ليُسامرَه ، فلما جاء الخادم إليه وجده جالساً وحواليه كُتُبٌ وهو يطالع فيها ، فقال له : إن أمير المؤمنين يَسْتدعيكَ ، قال : قُلْ له عندي قوْمٌ من الحكماء أُحادثُهم فإذا فرغتُ منهم حضرتُ . فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك قال له: وَيْحَكَ ! مَنْ هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده ؟ قال : والله يا أميرَ المؤمنين ما كان عنده أحدٌ . قال : فأحضرْه الساعةَ كيف كان . فلما حضرَ ذلك العالم قال له الخليفة : مَنْ هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟ قال يا أمير المؤمنين :

لنا جلساء ما نملّ حديثَهم ... أمينون مأمُونون غيباً ومَشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... ورَأياً وتأديباً ومَجْداً وسُؤْدَدا
فإن قلت أموات فلم تعدُ أمرهم ... وإن قلت أحياء فلست مفنّدا

فَعَلِمَ الخليفةُ أنّه يُشيرُ بذلك إلى الكتب ولم ينكر عليه تأخّره .

وقال الجاحظُ : دخلتُ على محمد بن اسحق أمير بغداد في أيّام ولايته وهو جالسٌ في الديوان والناسُ مُثولٌ بين يديه كأن على رؤوسهم الطّيرَ ، ثم دخلتُ إليه بعد مُدّةٍ وهو مَعْزُولٌ وهو جالسٌ في خزانة كُتُبه وحواليه الكتبُ

والدفاترُ والمحابرُ والمساطرُ فما رأيْتُه أهْيَبَ منه في تلك الحال .

وقال المتنبّي :

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرْجُ سابحٍ وَخيرُ جليسٍ في الزمان كتابُ

والعلم يزين الملوك أكثر مما يزين السّوقةَ ، وإذا كان الملكُ عالماً صار العالمُ ملكاً . وأصلحُ ما نظر فيه الملوكُ ما اشتَمَلَ على الآداب السّلطانيّة والسيَر التّاريخيّة المطويّة على ظرائف الأخبار ، وعجائب الآثار ، على أن الوزراء كانوا قديماً يكرهون أن الملوك يقفون على شيء من السّيَر والتواريخ خَوْفاً أن يتَفَطّنَ الملوك إلى أشياء لا يحبّ الوزراءُ أن يتفطّن لها الملوك .

طَلَبَ المُكتَفي منْ وزيره كُتُباً يلهو بها ويقطع بمطالعتها زَمانَه ، فتقدّم الوزير إلى النوّاب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله إلى الخليفة ، فحصّلوا شيئاً من كتب التاريخ وفيها شيءٌ مما جرى في الأيّام السالفة من وقائع الملوك ، وأخبار الوزراء ومعرفة التحيّل في استخراج الأموال . فلما رآه الوزيرُ قال لنوابه : واللهِ إنّكم أشدّ الناس عداوَةً لي ، أنا قلتُ لكم حَصّلوا له كتُباً يلهو بها ويشْتغلُ بها عني وعن غيري ، فقد حصّلتُم له ما يُعرّفهُ مصارعَ الوزراء ، ويُوجِدهُ الطريقَ إلى استخراج المال ، ويعرّفهُ خَرابَ البلاد من عمارتِها . رُدّوها وحَصّلوا له كتباً فيها حكاياتٌ تُلْهِيه وأشعارٌ تُطربه .

كره المعرفة في الخلفاء والملوك

وكانوا يكرهون أيضاً أن يكون في الخُلفاء والملوك فَطانةٌ ومعرفةٌ بالأمور . لما مات المُكتفي عَزَمَ وزيره على مبايعة عبد الله بن المُعتزّ ، وكان عبد الله فاضلاً لبيباً محصّلاً ، فخلا به بعضُ عُقلاء الكتّاب وقال له : أيّهذا الوزير ، هذا الرأي الذي قد رأيتَه في مُبايعة ابن المُعتزّ ليس بصواب . قال

الوزيرُ : كيف ذلك ؟ قال : أيّ حاجةٍ لك أن تُجلسَ على سرير الخلافة مَنْ يعرفُ الذراعَ والميزانَ والأسعارَ ويَفهمُ الأمور ويعرفُ القبيحَ من الحسنِ ويعرفُ دارَكَ وبستانَكَ وضَيعتَكَ ؟ الرأي أن تُجلسَ صبيّاً صغيراً ، فيكون اسمُ الخلافةِ له ومعناها لكَ . فتربّيه إلى أن يكبر ، فإذا كبر عرفَ لك حقّ التربية وتكون أنتَ قد قضيتَ أوطارَكَ مُدةَ صغره . فشكرَه الوزير على ذلك وعَدل عن عبد الله بن المُعتزّ إلى المُقتدر وعمرُه يومئذٍ ثلاثَ عشرة سنة .

وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، رحمه الله ، أكثر ما يجري في مجلس أُنْسه إيرادُ الأشعار المُطربة ، والحكايات المُلهية ، فإذا دخل شهرُ رمضان أُحضرَتْ له كُتُبُ التواريخ والسِّيَر وجَلَسَ الزّينُ الكاتبُ وعزّ الدين المحدّث يقرآن عليه أحوال العالم .

عيسى بن ابراهيم ومكارمه

وهذا التقريرُ يَستدعي شرْحَ حال ، وذلك أنّي حين أحلّني حُكمُ القضاءِ بالمَوْصِل الحَدْباء حَلَلْتُها غير مُتَعرّضٍ لوَبْلها أو طَلّها ودخلتُها كما قال عزّ من قائل : « وَدَخلَ المدينةَ على حين غفْلَةٍ من أهْلِها » . وكنتُ بنيتُ عَزْمي على المُقام فيها بقدر ما ينكسرُ البردُ ، ويثقل البُرْد . ثم التوجّه بعد ذلك إلى تبريز ، فحين استقرَرْتُ بالمَوْصل بلغني من عدّةِ جهاتٍ مختلفة ، ومن ذوي آراء غير مؤتلفةٍ ، غزارةُ فضل صاحبها الأعظم ، المولى المخدوم الملك المعظّم ، أفضل الملوك وأعظمهم ، وأكرم الحكام وأحلمهم ، فَخر الملّة والدين ، الممنوح بخصائصَ لو كانت للدهر لما شكا صرْفَهُ حرّ ، ولما مَسّ أحداً منه ضرّ ، ولو كانت للبحر لما كان ماؤه مِلحاً أُجاجاً ، ولا خاف راكبُه منه أمواجاً ، ولو ظفرتْ بها الأقمار ، لما لحقها السرارُ ، عيسى الذي أحيا ميتَ الفضائل ، ونشرَ طيّ الفواضل ، وأقام سوقَ المكارم في عصرٍ كسدت فيه سوقُها ، وأنهض

مُقْعَدات المحاسنِ بعدما عجزَتْ عن حملِ أجسامها سُوقُها ، وذبّ عن الأحرار في زمانٍ هُم فيه أقلّ من القليل ، وملأ أيديهم من عطائه بأيادٍ واضحة الغُرّة والتّحجيل ، وأفاءَ عليهم ظلّ رأفةٍ لا يتنقّل ، وخفضَ لهم جناحَ رحمةٍ فما يَني يتفضّلُ عليهم ويتطوّلُ ، كلما ازداد دولةً وتمكيناً ، زاد تواضعاً ولِيناً ، وكلّما بلغ منَ المُلْكِ غايةً ، رفعَ للكَرم رايةً ، ابن ابراهيم أعزّ اللهُ نصرَه وأنفذَ نَهيَه وأمْرَه، الذي أنسى ذكرَ الأجواد، ورزانةَ الأطوادِ ، وشجاعةَ الآساد .

للشمس فيـه وللرّياح وللسّحـا بِ وللبحار وللأسود شمائل

الذي هو في جبهة هذا الدهر غُرّه ، وفي قلادته دُرّه ، لا تُدانيها في الدنيا دُرّه ، الذي صَدّقَ أخبار الماضين ، وحقّقَ ما نُسِخ من مآثر الأوّلين ، وقد قال ابن الروميّ :

أظنّ بأن الدهرَ ما زال هكذا وأنّ حديثَ الجود ليس لـه أصلُ
وَهبْ أنّه كان الكِرامُ كما حكَوْا أما كان فيهِـم واحدٌ ولـه نَسلُ

فلو شاهَدَه لصَدّقَ ما سمع من أخبار أهل الكرم ، ولما اختلجتْ بين جَنبَيه عوارضُ التّهَم . الحاكم الذي إذا سلّط ذهنَه الشريف ، وفكرَه اللطيف ، على القضايا الديوانيّة ، والأمور السلطانيّة ، ذلّت له الصعاب ، ولانَت له الصُمُّ الصّلاب ، وظهرَتْ له الخفايا ، وتعذّر أن يُقال : في الزوايا خَبايا . أما قوّةُ العدلِ عنده فسليمةٌ ، قواعدها لَديه قويمةٌ ، فلا تُجزعَنّكَ هيبتُه المرهوبةُ ، فإن وراءها رأفةً بالضعيف ، ورقّةً على الفقير ، وجَبراً للكسير .

ولـه من الصّفحِ الجميل عَوائدٌ أسِرَ الطّليقُ بهـا وفُكّ العاني

قوة السياسة والذكاء

ولقد حضرْتُ يوماً مجلسَه الرفيع وكان يوم غيثٍ ، وقد تقدّمَ بصيانة الباب ، فلما كثُرَ الغيثُ ، قال للحجّاب : مَن حضر الباب وله حاجةٌ فعرّفونا بها ، ثمّ قال : إن أحداً لا يحضر في مثل هذا الوقت إلا لضرورةٍ ، ولا يجوز أن يُرَدّ خائباً . فبالله هل يأتي في هذا الكتاب الذي يريد أن يكون مشتملاً على محاسن الآثار إلاّ ما هو من جنس هذه الحكاية ؟ وأما قوةُ السياسةِ عنده فعظيمةٌ ، لم تعترضْها هضيمةٌ ، فلا تغرّنّك رقّتُه وابتسامُه ، فإن وراءَ ذلك صرامةً يخضعُ لها الأسودُ ، وشهامةً يحذرُها السيّدُ والمَسود .

هوَ البحرُ غُصْ فيه إذا كان ساكناً على الدُّرّ واحْذرْهُ إذا كان مُزْبِدا

وأما قوّةُ الذكاء والتيقّظ فهو فيها كما قال المتنبّي :

تُعرَفُ في عينِه حقيقتُه كأنّه بالذّكاءِ مُكتَحِلُ
أُشفِقُ عند اتّقادِ فِكرتِه عليه مِنْها أخافُ يَشْتعِلُ

قوة العقل وقوة الكرم

وأمّا قوّةُ العقْل الغزير ، والتّمييز الصحيح ، فإنّي لأظُنُّ أن عقلاءَ الملوك الماضين لو عاشوا وشاهدوه ، لَتَعَلّموا منه كيف يُساسُ الجمهور ، وكيف تُدبَّرُ الأمور . وأما قوّةُ الكرم الذي يجاوز الحدّ وخَرَج ، فحدّثْ عن البحر ولا حَرَج ، فلو عاش الكرامُ الذين ضُرِبتْ بهم الأمثالُ ، وعدمت لهم النظراء والأمثال ، لَتَعَلّموا منه غوامضَ الكرم ، ولَتَلقّفوا منه محاسن الشِّيَم . ولو أنصفتُ لتركتُ وصفَ هذه القوّة من قواه عجزاً عن الإحاطة بكُنْه وصفها ،

وقصوراً عن القيام بواجب رَصْفِها ، ولكني أقول بحسب الجُهدِ والطاقة إنّ احتقارَه للدّنْيَا احتقارُ الأولياء ، واستصغاره لها استصغارُ الزهّاد .

فلَوْ جادَ بالدّنْيا وثنّى بضعفِها لَظَنّ من استصغاره أنّه ضنّا

يعطي عَطاءَ مَن يُبقي الذكرَ ويُحييه ، ويُنفد المالَ ويُفنيه .

أعاذلَ إنّ الجودَ ليسَ بمُهلكي ولا يُخْلِدُ النّفسَ الشحيحة لومها
وتذكرُ أخلاق الفتى وعِظامُهُ مغيَّبةٌ في التّربِ بالٍ رَميمُها

بهمّةٍ نالتِ السماء ، وجاوَزَتِ الجوزاء ، ومِن هُناك حصل له الأنْسُ بعلم النّجوم ، فإنّه أخذ علمها بالارتقاء إليها والاقتراب ، لا بالحساب والاصطرلاب . بلغ السماء عُلُوّاً فشافهتْهُ بأسرارها كواكبُها ، وقَرَعَ الأفلاكَ سُموّاً فحدّثتهُ بأخبارها مشارقُها ومغاربُها .

له هِمَمٌ لا مُنتَهى لكِبارِهَا وهِمّتُهُ الصغرى أجلّ من الدهر

لا تستقرّ في خزائنه نفائسُ أموالِهِ ،ولَيسَ لها بيْتٌ يحفظُها سوى بُيوتِ سُؤّالِهِ .

إنّا إذا اجتمعتْ يوماً دراهِمُنَا ظلّتْ إلى طرُق العلياء تستبِقُ
لا يألَفُ الدّرْهمُ المنقوشُ صرّتنا لكنْ يمرّ عليها وهو مُنطلِقُ

كريم في سكره وصحوه

لا يفعل السكر في كرَمه ، إلا كما يفعل الصّحوُ في إمطار دِيَمه .

يُعِيدُ عَطايا سُكره عنـد صَحْوِهِ ليُعلمَ أنّ الجودَ مِنهُ عـلى عِلْمِ

ويَسْلَم في الإحسان منْ قولِ قائلٍ تَكَرَّمَ لمّا خامرَتْهُ ابنَةُ الكَرْمِ

ومن أسرار كَرَمه أنّه منزّه عن التّبذير ، وإن كان أكثر من الكثير . لأنّه موضوعٌ في أجلّ مواضعه ، وواقعٌ في أفضل مواقعه ، فمتى تعرّض آملٌ ، أو عنّ سائلٌ ، بادر إلى إرفاده ، مبادرة السيل إلى وهاده .

عَشِقَ المكارمَ فاستهامَ بذكرِها والمَكرُماتُ قليلةُ العُشّاق
وأقام سُوقاً للثّناءِ ولم تكُنْ سوقُ الثّناءِ تُعَدّ في الأسْواقِ
فاذكُرْ صنائعَهُ فلستَ صَنائعاً لكنّهنّ قلائدُ الأعناق
والْثُمْ أناملَهُ فلَسْتَ أناملاً لكنّهُنّ مفاتِحُ الأرزاقِ

وكأنّي بكَ أيّها الناظرُ في هذا الكتاب قد استعظمتَ ما سمعتَ ، فإنْ عَرَضَ لكَ الشكّ فانظرْ أعيانَ هذا العصر تجدْهم يناقشون على الذرّة ، وتجدْهُ لا يلتفتُ إلى الدُّرّة . وتجدْهم يحرصون على اقتناء الذخائر ، وتجدْه لا يحرصُ إلاّ على الذكر السائر ، والصّيتِ الطّائر . وتجدْهم قد شَغَفَتْهم محبةُ الأولاد ، وتجدْهُ قد شَغفته محبّةُ السؤّال والقُصّاد . وتجدهم يهربون من المغارم ، وتجده يَعُدّها من أفضل المغانم . ثمّ ارجِعِ البصر تجدِ المدائح عندهم كاسدة ، وتجدها عنده نافقة ، وتأمّلْ تبصر المكارم لديهم جامدة ، وتبصرها لديه دافقةً . وانظرْ بابه تجده عامراً بوفود الثّناء ، غاصّاً بالأدباء والشعراء والفضلاءِ والفُصَحاءِ .

يسقُطُ الطّيرُ حيثُ يُلتقطُ الحَـ ـبّ وتُغشى منازل الكرَماءِ

تالله ما الدنيا إلا دنياه ، ولا العيش إلا عيشه الذي أعطاه اللهُ :

ما العَيشُ أن يُمسي الفتى مُتشبّعاً ضَخْمَ الجُزارَهْ
العَيْشُ أن يشجي الفتى أعداءَه ويُعزّ جارَه
حتى يُخاف ويُرتجى ويُرى له نَشَبٌ وشاره
ويروحُ إمّا للكتا بةِ سَعْيُه أو للإماره

موضوع الكتاب

رَجَعنا إلى حكاية الحال ، وإتمامِ المقال : فلفّقتِ المقاديرُ أن جرى ذكري بين يديه ، وعُرِضَ شيء من أمري عليه ، فلمح بذكاءِ قلبه ، وصحّة حدسه من تلك الأنباء حقيقة حالي قبل اللّقاء ، وتقدّم بالحضور في خدمته . فلما حضرتُ راعني ما شاهدت من كمال هيئته ، وراقني ما عاينْتُ من جمال صورته ، وشريف سيرته . فكان أول ما أنشدته قول المتنبّي :

وما زِلتُ حتى قادَني الشّوْقُ نحوَهُ يُسايرُني في كل ركبٍ له ذكرُ
وأستعظِمُ الأخبارَ قبلَ لقائِهِ فلمّا التقينا صَغّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ

ثم تابع من ألْطافه ما غرَسَ به ودّاً ، وجنى منه ثناءً وحمداً ، فرَأيتُ أن أخدُم حضرته بتأليف هذا الكتاب ليكون تذكرةً له ، وتذكرةً لي عنده ، يذكرني به إذا غبتُ عن عالي جنابه ، وانفصلتُ عن فسيح رحابه .

وهذا كتابٌ تكلمت فيه على أحوال الدول وأمور الملك ، وذكرت فيه ما استظرفتُهُ من أحوال الملوك الفضلاء ، واستقريتُهُ من سيَر الخلفاء والوزراء ، وبنيتهُ على فصلين :

فالفصلُ الأولُ تكلمتُ فيهِ على الأمور السّلطانيّة ، والسياساتِ الملكيّة ، وخواصّ الملك التي يتميّز بها عن السوقة ، والتي يجب أن تكون موجودة أو معدومةً فيه ، وما يجب له على رعيّته وما يجب لهم عليه ، ورصّعتُ الكلام فيه بالآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة والحكايات المُستظرَفة والأشعار المُستحسَنَة .

والفصلُ الثاني تكلّمتُ فيه على دَولة دولةٍ من مشاهير الدول التي كانت طاعتها عامّة ، ومحاسنُها تامّة ، ابتدأتُ فيه بدولة الأربعة أبي بكر وعُمر وعثمان وعلي ، رضي الله عنهم ، على الترتيب الذي وقع ، ثم بالدولة التي تسلمتِ الملكَ منها وهي الدولةُ الأمويّة ، ثم بالدولة التي تسلمتِ المُلكَ منها

وهي الدولة العبّاسيّة ، ثم بالدول التي وقعت في أثناء الدول الكبار كدولة بني بُوَيه وكدولة بني سَلجوق وكدولة الفاطميّين بمصر على وجه الإيجاز ، فإنّها دولٌ وقعتْ في أثناء دولة بني العبّاس ولكنّها لم تكن طاعتُها عامّة ، فأتكلّم على دولةٍ دولةٍ بمجموع ما حصل في ذهني من الهيئة الاجتماعيّة التي أفادتنيها مُطالعةُ السيَر والتواريخ ، فأذكرُ كيف كان ابتداؤها وانتهاؤها وطَرَفاً ممتعاً من محاسنِ ملوكها وأخبار سلاطينها . فإن شذّ شيء من أحوالها عن ذهني ، واحتجتُ إلى إثباته من حكايةٍ ظريفةٍ أو بيت شعر نادر أو آيةٍ أو حديثٍ نَبَويّ أخذتُه من مظانّه ، ثم إذا ذكرتُ دوْلةً فدوْلة تكلمتُ على كليّات أمورها ، ثم ذكرت واحداً واحداً من ملوكها وما جرى في أيامه من الوقائع المشهورة ، والحوادث المأثورة ، فإذا انقضتْ أيام ذلك الملك ذكرت وزراءه واحداً واحداً وظرائفَ ما جرى لهم ، فإذا انقضَتْ أيّام الملك ووزرائه ابتدأت بالملكِ الذي بعده وبما جرى في أيامه وبسِيَر وزرائه كذلك إلى آخر الدولة العبّاسيّة .

والتزمتُ فيه أمرين ، أحدهما ألاّ أميلَ فيه إلاّ مع الحقّ ، ولا أنطقَ فيه إلا بالعَدل ، وأن أعزِلَ سلطانَ الهوى ، وأخرجَ من حكم المنْشإ والمَرْبى ، وأفرضَ نفسي غريباً منهم وأجنبيّاً بينهم ، وثانيهما أن أعبّر عن المعاني بعبارات واضحة تقرُب من الأفهام لينتفعَ بها كلّ أحد ، عادلاً عن العبارات المستصعبة التي يُقصدُ فيها إظهار الفصاحة وإثباتُ البلاغة ، فطالما رأيتُ مُصَنّفي الكتب قد اعترضتهم محبةُ إظهار الفصاحة والبلاغةِ فخفِيَتْ أغراضُهم ، واعتاصت معانيهم ، فقلّتِ الفائدة بمصنّفاتهم ، من ذلك كتاب القانون في الطبّ لأبي علي الحسين بن سينا البُخاريّ ، فإنّه حشاه بالعبارات الغامضة والتراكيب المُستَغْلَقَة ، فبَطَلَ غرَضُهُ من الانتفاع بكتابه ، ولذلك ترى عامّة الأطبّاء قد عدلوا عن كتابه إلى الملكيّ السهل العبارة ، المُفْهم الإشارة . . .

منافع هذا الكتاب

وهذا كتابٌ يحتاجُ إليه مَن يسوس الجمهور ، ويدبّر الأمور ، وإن أنصَفَه الناس أخذوا أولادهم بتحفّظه وتدبّر معانيه بعد أن يتدبّروه هم ، فما الصغير بأحوج إليه من الكبير ، ولا الملكُ العامّ الطاعةِ بأحوجَ إليه من ملك مدينة ، ولا ذوو المُلْكِ بأحوج إليه من ذوي الأدب ، فإنّ مَن ينصبُ نفسه لمفاوضة الملوكِ ومجالستهم ومذاكرتهم ، يحتاج إلى أكثر ممّا في هذا الكتاب، فعلى أقلّ الأقسام لا يَسَعُهُ تركهُ .

وهذا الكتابُ إن نُظِرَ بعين الإنصاف رُئِيَ أنفعَ من الحماسةِ التي لَهِجَ النّاس بها ، وأخذوا أولادَهم بحفظها ، فإنّ الحماسةَ لا يُستَفاد منها أكثر من التّرغيب في الشّجاعة والضّيافة وشيءٍ يسيرٍ من الأخلاقِ في الباب المسمّى بباب الأدب ، والتأنّس بالمذاهب الشعرية ، وهذا الكتاب يُستَفادُ منه هذه الخصالُ المذكورة ، ويُستفادُ منه قواعد السياسة ، وأدوات الرياسة . فهذا فيه ما في الحماسة وليسَ في الحماسة ما فيه ، وإنّه ليفيد العقلَ قوّةً والذهنَ حِدّة والبصيرةَ نوراً ؛ وهو للخاطر الذكيّ بمنزلةِ المِسَنّ الجيّد للفولاذ ، وهو أيضاً أنفع من المقامات التي النّاس بها معتقدون ، وفي تحفّظها راغبون ، إذِ المقامات لا يُستفادُ منها سوى التمرّنِ على الإنشاءِ ، والوقوف على مذاهب النظم والنثر . نَعَم وفيها حِكَمٌ وحِيَلٌ وتَجارِبُ إلاّ أن ذلك مما يُصغّر الهمّة ، إذ هو مبنيّ على السؤال والاستجداء والتحيّل القبيح على تحصيل النّزْر الطفيف ، فإن نَفَعَتْ من جانب ضرّت من جانب ، وبعضُ الناس تنبّهوا على هذا من المقامات الحريريّة والبديعيّة ، فعَدَلَ ناسٌ إلى نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، عليه السلام ، فإنّه الكتاب الذي يُتعلّم منه الحكمُ والمواعظُ والخطب والتوحيد والشجاعة والزهد وعلو الهمّة ، وأدنى فوائده الفصاحةُ والبلاغةُ ، وعَدَل الناس إلى اليمينيّ للعُتبي ،وهو كتابٌ صنّفَه مؤلّفه

ليمين الدولة محمود بن سبكتكين ، يشتمل على سِيَر جماعة من الملوك بالبلاد الشرقيّة ، عبّر فيه بعبارات حظها من الفصاحة وافر ، وصاحبها إن لم يكن ساحراً فهو كاتب ماهر ، والعَجم مشغوفون به مجدّون في طلبه ، وهو لعمري كتابٌ يشتملُ على ظرائف حِكَم وبدائع سِيَر ، مع ما فيه من فنون البلاغة وأنواع الفصاحة ، ولعلّ قائلاً أن يقول : لقد بالَغَ في وصف كتابه ، وحشا ما شاءَ في جرابه ، والمرء مفتون بابنه وشعره ، فإن اعتراه ريب فليتأمّل الكتبَ المصنَّفة في هذا الفنّ ، فلعلّه لا يرى فيها كتاباً أجمعَ للمعنى الذي قُصد به من هذا الكتاب .

فائدتا الكتاب

وهو أعزّ اللهُ نصرَه ، وسَرّ بدوام السعادة سرَّه ، قد أغناه الله بالذهن القاهر ، والفضل الباهر ، عن هذا الكتاب وعن أمثاله ، ولكن مهامّه الشريفة ربّما أضجرتْه وأنْسته ، فإذا رَوّحَ فكرَه الشريف بالنّظر فيه دفع به المَلال ، وتذكّر به ما أنسته الأشغالُ . ومن ألطاف الله تعالى أسأل ألاّ يُخْلي هذا الكتابَ من فائدتين إحداهما تخصّني وهي أن يقعَ عنده بموقع الاستصواب فأبرأ من عُهدة الخجل ، والأخرى تخصّه وهي ألا يُعدمَه الانتفاع به في القول والعمل ، إنّه وليّ كلّ نعمة ومُسدي كل عارفة .

الفصل الاول

في الأمور السلطانية ، والسياسات الملكية

أما الكلام على أصل المُلك وحقيقته وانقسامه إلى رياساتٍ دينية ودُنيويّة ، من خلافةٍ وسَلْطَنَةٍ وإمارةٍ وولاية ، وما كان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن ، ومذاهب أصحاب الآراء في الإمامة ، فليس هذا الكتاب موضوعاً للبحث عنه ، وإنّما هو موضوع للسياسات والآداب التي يُنتَفَع بها في الحوادث الواقعة ، والوقائع الحادثة ، وفي سياسة الرعيّة وتحصينِ المملكة ، وفي إصلاح الأخلاق والسيرة . فأول ما يُقال ان الملك الفاضل هو الذي اجتمعت فيه خصالٌ وعُدمتْ فيه خصال ، فأمّا الخصال التي يُستحبّ أن توجد فيه فمنها العقل وهو أصلُها وأفضلُها ، وبه تُساسُ الدول بلِ المِلَلُ ،وفي هذا الوصف كفاية .

ومنها العدل وهو الذي تُستغزر به الأموال ، وتعمُرُ به الأعمـــال ، وتُستَصلحُ به الرجال .

ولما فتح السلطان هولاكو بغداد في سنة ستّ وخمسين وستمائة أمرَ أن يُستفتى العلماءُ أيّما أفضل : السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلمُ الجائر ؟ ثمّ جمع العلماء بالمستنصريّة لذلك ، فلما وقفوا على الفُتيا أحجموا عن الجواب ، وكان رضيّ الدين عليّ بن طاووس حاضراً هذا المجلس،وكان مُقدَّماً محترماً، فلما رأى إحجامهم تناول الفتيا ووضع خطّه فيها بتفضيل العادل الكافر عـــلى المُسلم الجائر ، فوضع الناس خطوطَهم بعده .

ومنها العلم وهو ثمرة العقل وبه يَستَبصرُ الملك فيما يأتيه ويَذَرُه ، ويأمنُ الزّلَل في قضاياه وأحكامه ، وبه يتزيّن الملكُ في عيون العامّة والخاصّة ، ويصير

به معدوداً في خواصّ الملوك .

قال بعض الحكماء : الملك إذا كان خلواً من العلم كان كالفيلِ الهائج لا يمرّ بشيء إلا خبَطَه ، ليس له زاجر من عقل ، ولا رادع من علم . واعلمْ أنّه ليس المُراد بالعلم في الملوك هو تصور المسائل المشكلة والتبحّر في غوامض العلوم والإغراق في طلبها . قال معاوية : ما أقبح بالملك أن يُبالغ في تحصيل علم من العلوم. وإنّما المراد من العلم في الملك هو ألا يكون له أنسٌ بها إلاّ بحيث يُمكنه أن يفاوض أربابها فيها مفاوضة يندفع بها الحال الحاضر ، ولا ضرورة في ذلك إلى التدقيق .

كان مؤيّد الدين محمد بن العلقمي وزير المستعصم وهو آخر وزراء الدولة العبّاسية ، يفاوض كلّ من يدخل عليه من العلماء مفاوضة عاقل لبيب محصِّل ، ولم يكن له بالعلوم مَلَكَة ولا كان مرتاضاً بها رياضةً طائلة . كان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لكثرة مجالسة الأفاضل وخوضه في الأشعار والحكايات يستنبطُ المعاني الحسنة ، ويتنبّهُ على النُّكتِ اللطيفة ، مع أنّه كان أميّاً لا يكتبُ ولا يقرأ . وكان عزّ الدين عبد العزيز بن جعفر النيسابوري ، رضي الله عنه ، لمجالسة أهل الفضل ولكثرة معاشرتهم له ، صار يتنبّه على معانٍ حسنة ، ويحلّ الألغاز المُشكلة أسرع منهم ، ولم يكن له حظّ من علم وما كان يظهر للناس إلاّ أنّه رجل فاضل ، وخفيَ ذلك حتّى على الصاحب علاءِ الدين ، فإن ابن الكبوش الشاعر البصريّ عمل بيتين في الصاحب ونسبهما إلى عبد العزيز وهما :

عطا ملك عطاؤك ملك مصر وبعض عبيد دولتك العزيز
تُجازي كلّ ذي ذنبٍ بعفوٍ ومثلُك مَنْ يُجازي أو يُجيز

فأنشدهما عبد العزيز بحضرة الصاحب وادّعاهما ، وخفيَ الأمرُ على الصّاحب ، وما أدري من أيّهما أعجبُ ! أمن الصاحب كيف خفيَ عنه حال عبد العزيز مع أنّه السنين الطويلة يعاشره في سفَرٍ وحَضَرٍ وجدّ وهزْل ؟ أم

من عبد العزيز كيف رضي لنفسه مثلَ هذه الرذيلة ، وأقدمَ على مثل هذا مع الصاحب ، وما خافَ من تنبّه الصاحب واستّر ذاله لفعله ؟

اختلاف علوم الملوك

وتختلفُ علومُ الملوك باختلاف آرائهم ، فأمّا ملوك الفرس فكانت علومهم حِكَماً ووصايا وآداباً وتواريخ وهندسة وما أشبه ذلك ، وأما علوم ملوك الاسلام فكانت علوم اللسان كالنحو واللغة والشعر والتواريخ ، حتى إن اللحن كان عندهم من أفحش عيوب المَلِك ، وكانت منزلة الانسان تعلو عندهم بالحكاية الواحدة وبالبيت الواحد من الشعر ، بل باللّفظة الواحدة من اللغة ، وأمّا في الدولة المَغولية فرُفضَتْ تلك العلوم كلّها ونَفَقَت فيها علومٌ أُخر ، وهي علم السياقة والحساب لضبط المملكة وحصر الدخل والخَرْج ، والطبّ لحفظ الأبدان والأمزجة ، والنجوم لاختيار الأوقات ، وما عدا ذلك من العلوم والآداب فكاسدٌ عندهم ، وما رأيتُه نافقاً إلا بالموصل في أيام مَلكها المُشار إليه مَدّ اللهُ ظِلّه ونشر فضله .

الخوف من الله

ومنها الخوف من الله تعالى ، وهذه الخصلة هي أصلُ كل بركة ، فإن الملك متى خاف الله أمِنَه عباد الله . روي أن عليّاً أمير المؤمنين ، عليه السلام ، استدعى بصوته بعض عبيده فلم يُجبْه ، فدعاه مراراً فلم يجبْه . فدخل عليه رجل وقال : يا أمير المؤمنين إنّه بالباب واقف ، وهو يسمع صوتك ولا يكلّمك . فلما حضر العبدُ عنده قال : أما سمعت صوتي ؟ قال : بلى ، قال : فما منَعَكَ من إجابتي ؟ قال : أمِنتُ عقوبتك ، قال عليّ ، عليه السلام : الحمد لله الذي خَلَقني ممّن يَأمنه خَلْقُه . وما أحسن قول أبي نُوَاس لهرون الرشيد :

قَدْ كنتُ خفتُكَ ثم آمَنَني من أن أخافَكَ خوفُك اللهَ

ولم يكن الرشيد يخاف الله ، وأفعالُه بأعيان آل عليّ وهم أولادُ بنت نبيّه لغير جُرم تدلّ على عدم خوفه من الله تعالى ، ولكنّ أبا نواس جرى في قوله على عادة الشعراء .

العفو عن الذنوب

ومنها العفوُ عن الذنوب وحُسنُ الصّفح عن الهفوات ، وهذه أكبر خِصال الخير وبها تُستمال القلوب ، وتُصلَح النيّات ؛ فمما جاء في التنزيل من الحثّ على ذلك قولُه تعالى شأنه : « وَلْيَعْفُوا ولْيَصْفَحوا ألا تُحِبّونَ أن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ » ؛ وكان المأمون حليماً حَسَنَ الصّفْح معروفاً بذلك. هجاه دِعبِل الشاعر بأشعار كثيرة من جُملتها :

إنّي منَ القَوْمِ الذين سيوفُهم قَتَلَتْ أخاكَ وشرّفَتْكَ بمقعد
شادوا بذكرِك بعد طولِ خمولِه واستَنقذوك من الحضيض الأوْهد

فلما بلغهُ هذا القول لم يزد على أن قال : قاتَلَهُ الله ما أشدّ بُهتانه ! متى كنتُ خاملاً وفي حَجْر الخلافة نشأتُ ، وبِدَرّها أُرْضِعت ؟ ولمّا بَلَغَهُ أنّ دِعْبِلاً قد هجاه قال : مَن أقدم على هجاء وزيري أبي عبّاد كيف لا يُقدم على هجائي ؟ وهذا الكلام ظاهرُه غيرُ مستقيم وهو يحتاج إلى تأويل ، فإنّه عكسُ المعهود.وقد كان ينبغي أن يقول الوزير : من أقدم على هجاء الخليفة كيف لا يُقدم على هجائي ؟ ومعنى قول المأمون أنّ مَن أقدم على. هجاء أبي عبّاد مع حِدّته وهوجه وتسرّعه ، وكان أبو عبّاد كذلك ، كيف لا يقدم عليّ في حِلمي وصفحي . ولولا خوْف الإطالة لذكرْتُ جماعة من حلماء الملوك